رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٣ —

الجبال — لا نبالغ اذا قلنا ان القطر اليماني قطر جبلي بحت . لان جباله تشمل ما يزيد عن ثلاثة ارباع مساحته العامة . وجبال اليمن تتبع سلسلة « السراة » او سلسلة الحجاز الآتية من الشمال والمتدئة من بين الطائف ومكة والمنتهية في جنوب اليمن عند الاعضاد المشرفة على تهامة لحج وعدن . قال ياقوت في معجم البلدان : السراة جبل يشرف على عرفة قرب مكة يمتد الى صنعاء ، وانما سمي بذلك لعلوه ، وسراة كل شيء ظهره . وقال ايضاً : السراة الجبال او الارض الحاجزة بين تهامة واليمن ولها سمة وهي باليمن اخص . وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب السراة اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من ثنية اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانهُ حجز بين الغور « تهامة » وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه الى امياف البحر غور تهامة ، وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه نجداً ، وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز . وقال ايضاً : اما جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام فانهُ ليس بجبل واحد وانما هي جبال متصلة على نسق واحد من اقصى اليمن الى الشام في عرض اربعة ايام في جميع طول السراة يزيد كثير يوم في بعض هذه المواضع وقد ينقص مثله في بعضها . وفي (الرحلة اليمانية) للشريف عبد المحسن البركاتي : ان اول جبل السراة يبدأ في عقبة كرى بين الطائف ومكة ويسمى بجبل الحجاز لانهُ الحاجز بين تهامة ونجد وانهُ عظيم الارتفاع عن سطح البحر واسع المساحة كثير الطول طوله من الشمال الى الجنوب احدى واربعون مرحلة ، وكل مرحلة مسير يوم بالابل المحملة وهي اربعين كيلومتراً . فمن الطائف الى

ايها عاصمة عسير خمس عشرة مرحلة ومن ابها الى صعدة سبع مراحل ومن صعدة الى شهارة ثماني مراحل ومن شهارة الى صنعاء عاصمة اليمن سبع مراحل ومن صنعاء الى نهاية هذا الجبل اربع مراحل . وهذا الجبل آهل بالسكان وقراه متصلة ببعضها ، واذا سافر مسافر من الشمال الى الجنوب في تلك المراحل فانهُ يكون دائماً بين مزروعات واودية واشجار كثيرة المياه والمراعي وكافة قراه مبنية بالحجر المنحوت ودورها من طبقتين الى ثلاث ولا يوجد فيه الكواخ مثل تهامة . اه

قلت : وظهر هذه السلسلة المرتفعة ارتفاعاً عظيماً ينقسم قسمين ، فما كان منهُ في الشمال في علو نحو ٢٠٠٠ متر وما فوق حتى جاوز ٣٠٠٠ متر سمي باليمن الاعلى ، وما انحط في الجنوب عن ٢٠٠٠ متر حتى اقترب من مستوى التهائم سمي باليمن الاسفل . والحد بين اليمنين فيما قيل قرية المزل في نقيل سمارة في جنوب مدينة يريم ، على طريق تعز وعدن

واليمن الاعلى حول مدن يريم وذمار وصنعاء وغمران وما بعدها نحو الشمال يؤلف نجداً مستوياً واسعاً مستطيل الشكل يمتد من الشمال الى الجنوب من قرب جبال نجران الى نقيل سمارة المتقدم الذكر ، فيتباين العلو فيه من ٢٠٠٠ الى ٢٦٠٠ متر ويختلف طول قننه الشاغة من ٣٠٠٠ الى ٣٥٠٠ متر . ويمكن تشبيه هذا النجد بسنام الجمل . لان سفحيه الغربي والجنوبي يتدرجان في الانخفاض نحو التهائم الغربية والجنوبية ، وسفحه الشرقي نحو نباقي الجوف المنحطة ، وهذه تتدرج بالانخفاض من ١١٠٠ متر فما بعد ويمتد في وسط هذا النجد (خط تقسيم المياه) الذي يدفع بعض مياه ينابيعه وسيوله الى الاودية المنحدرة نحو نباقي الجوف في الشرق وبعضها الى الاودية المنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب . وسيأتي ذكر هذه الاودية

على ان النجد اليماني ليس في مجموعه بسيطاً خالياً من التلعان والتضاريس . بل ان في معظم ارجائه جبالاً وأطواداً عديدة منفردة او مجتمعةً مخروطيةً او مستطيلة الشكل . وهذه الجبال تفصل بين الرقاع التي يدعونها « نيمان » جمع « قاع » ويتخذون ارضها الشاسعة للحرث والاستغلال . اشهر منها قاع البون وقاع سنحان وفيه مدينة صنعاء وقاع جهران وقاع حواس وقاع الحقل وغيرها

اما اطراف السلسلة وسفوحها المنحدرة نحو الغرب والجنوب والشرق فهي تتألف من جبال شاهقة هائلة تتدرج في الهبوط نحو التهائم او الجوف ، وبعض اعضادها يدنو من البحر كتلك التي بين عدن وباب المندب ومخا

وجبال اليمن كلها — سواء أكانت في النجود أم في السفوح — من أروع جبال العالم مرأى واعسرها مرقى واكثرها تضرساً وتلعاً واشدها انحطاً وتصدعاً وافقرها بالماء والكلأ .

وجبال طوروس وآمانوس في شمالي الشام وجبال لبنان الغربي والشرقي واطوادها وعقباتها تحسب متواضعة ذليلة اذا قيست بما في اليمن. لا جرم أن من لم ير جبال اليمن المكفهرة وشناخيبه المشمخرة وأوديته السحيقة وصخوره العظيمة النافرة، ومعظمها جاف متجرد عن البهجة والخضرة، اسود اللون، متجهم المنظر، ومن لم يشلق نقائله[1] وعقباته الوعثاء او يتدحرج في منحدراته الكأداء ذات الميل الشديد — لا يعدُّ رأى جبالاً وأودية ولا قاسى تعباً ولا ردد لفظاً ولا ارتعدت فرائصه فرقاً من خشية تدهور السيارة أو كبو الراحلة او زلق القدم. وهذا التدهور او الكبو او الزلق مع الشبه في مهامه تهامة من الامور غير النادرة في اليمن. وبلغ الروعة في هذه الجبال والاودية يدركه المسافرون في احدى الطريقين القديمة (طريق القوافل) او الحديثة (طريق السيارات) بين الحديدة وصنعاء، او بين صنعاء وحجة، او بين صنعاء وتعز، بل في اي طريق شئت، اذكر ولا تستثنِ. ففي طرق اليمن الجبلية عدد لا يحصى من القمم الناطحة السحب والوهاد والهاوي المسمنة في التقعر والتموج والارتفاع والانخفاض في هذه الطرق يختلفان اختلافاً فجائياً لا حوادة فيه ولا رفق فيها ترى نفسك قد صعدت في ٤ — ٥ ساعات الى علو شاهق قدره ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر تهبط فوراً في ساعة او ساعتين الى ثلث او نصف او ثلثي ذلك العلو، ثم تعود للصعود، ثم للهبوط وهكذا بمعنى ان منكب هذه السلسلة مؤلف من مرتفعات ومنخفضات تتموج تموجاً رهيباً ويأخذ بعضها برقاب بعض كامواج البحر المتتالية المتلاطمة على مسافة بضع مئات من الكيلو مترات مما يبعث الرعب والتعب الزائدين للقريب القادم حديثاً.

ورغم اكفهرار هذه السلسلة وكثرة معارجها ومهابطها فأن في مشاهدها عظمة وروعة تأخذان بمجامع القلوب، ولاسيما حينما تتراكم امواج الضباب وتتكاثف قطع السحاب وترتج الآفاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف، وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث في اغلب الايام بعد الزوال، فحدث اذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل ورؤيتها التي لا تجتوى، مما يحتاج وصفه وتبيين الوانه ووقعه الى قريحة شاعر مفلق او ريشة رسام مبدع

البراكين والسيول

ولاقسام هذه السلسلة اسماء عديدة تدعى سروات جمع سراة. وفي كل من هذه السروات جبال متعددة معروفة باسماء واوصاف خاصة لا تتسع هذه النبذة لذكرها من وعرتها وكلها من الجبال البركانية الاندفاعية وجل صخورها من جنس البازلت الاسود او الازرق القاتم وهو لا يمتص الماء ولا يخزنه ناهيك جهومة منظره وبشاعة مكسره مما جعل جبال اليمن في الاكفهرار

(١) جمع نقيل وهو اصطلاح يماني يطلق على الطريق في الجبل. ويقابله عند اهل جبل لبنان كلمة «قادومية» من تعفير المشي الا على الاقدام

الذي وصفناه . وبعض تلك الصخور من جنس الحجر sandstone او الغرة grès او التراخيت او الميكاشيت ذات الالوان الدكن او الصفر . وتختلط هذه الصخور الرملية بصخور البازلت السود او تتراصف معها في غير انتظام في كثير من الاماكن . وتربة قيعان النجد اليماني تتألف من الطيفان الجيري والرملي الناشيء من تفتت الصخور المذكورة ، وتكون هذه التربة صفراء اللون في الغالب . وتتألف تربة الاودية من الرواسب الرملية والطينية الناعمة التي جرفتها السيول ، وتكون غبراء او رمادية اللون

ويظهر ان ثوران البراكين وفتكات الزلازل في الاطوار الجولوجية الغابرة كانت في اليمن على اشد مايتصوره علماء الجولوجيا في التصديع والتحطيم وان افعال العوامل الطبيعية من حر وقر وهزاهز وسيول ما برحت حتى يومنا هذا في غاية العنف والقسوة . فالمسافر في طول اليمن وعرضه كيفما التفت يقع بصره على اهاضيب هرمية او مخروطية الشكل قممها فوهات براكين منطفئة وعلى شناخيب مسننة مرتفعة كالآذن والابراج وعلى اطواد وآكام متسددة متنزلة او متحنطة وكلها مشحن بالخروق والشقوق المفجعة من هول تلك العوامل الطبيعية واخصها الزلازل والسيول . وفي مناكب تلك الشناخيب والاهاضيب والاطواد والآكام او في سفوحها وفجاجها جلاميد هائلة الحجم والشكل (مثل او اعظم من حجر الحبلي في بعلبك) حطمها الزلازل او السيول من عل ، وصخور عظيمة مكدسة (مثل او اعظم من صخور الاهرام في مصر) ورضام مضرسة تتدحرج كسورها وفتاتها تحت الارجل فتزيد تعب الصاعد في عقباتها ومنحدراتها الكأداء وتجعله يقاسي لهات المحتضر

وفعل السيول في اليمن عظيم . وتاريخ اليمن طافح بفجائع هذه السيول التي تحدث الفترة بعد الفترة . واخصها ما يحدث في صنعاء يأتيها من انحاء سنحان وسمسان وجبل اللوز ويخرب قسماً غير يسير من صنعاء وشعوب والروضة ويذهب بعد للانصباب في وادي خارد أحد أودية الشرق

واذا استثنينا القيعان المنبسطة في انحاد سلسلة السراة والرقاع الصالحة في بعض ذرواتها واسنادها[1] والمنحدرات الخفيفة التي وطدها اليمانيون بمناعب زائدة وعملوا فيها حقولاً صناعية متدرجة اسموها جُرباً جمع جربة[2] فان اكثر أقسام هذه السلسلة عاطل غير قابل للحرث والزرع ، وتكاد نسبة القابل منها لا تزيد عن الاربعين في المائة ، وما بقي فتون او حرار[3] اومنحدرات هي مسارح للقرود وأوكار للنسور ومنابت لما لا خير في اكثره من الاعشاب التافهة والانجم والاشجار الشائكة مما سوف نذكره في بحث الزراعة

(١) السند ما قابلك من الجبل وعلا من السفح

(٢) يقابلها لدى أهل جبل لبنان كلمة جلول جمع جل (٣) التون جمع متن وهي الارض التي تجمع الارتفاع والصلابة والغلظة والحرار جمع حرة وهي الارض ذات الحجارة الكثيرة السود النخرة

وغني عن القول ان هذه الجبال لا تتساوى في العظمة والروعة وامكان الصعود والنزول ووجود رقاع للحرث والزرع فيها او عدمه . فمنها ما هو واسع الذروة ، صالح التربة ، قابل الصعود على البغال والحمير . ومنها ما تفاتئه شديدة الكؤودة تزل الوبر[١] والقرد ، بل ان بينها ما ليس له غير نقيل « لا يطلعهُ سوى المشاة ولا يطلعهُ دابة . فاذا — ارادوا دابةً يستفيدون بها في ذروته مثل البقر للحرث والحمير للحمل حملها الرجال عجلةً او عضوةً صغاراً »[٢] . على ان اليمانيين لم يغادروا قيد شبر يمكن الاستفادة منهُ في ذرواتهذه الجبال او منحدراتها لا سيما من تلك التي تتفجر فيها عيون وغيول[٣] . فهم قد تعلقوا باذيالها وتسلقوا ادراجها ووطدوا ما امكنهم التوطيد من انجادها واسنادها فزرعوا وغرسوا وشادوا الحصون والقرى بهم فساء جديرة بالاعجاب

الطرق ووسائل النقل

اما وسائط النقل فأحدثها السيارات . فهي قد دخلت اليمن منذ خمس سنوات وصارت تجري الآن بين اكثر المدن والقرى التهامية وبعض النجدية التي لا يصعب وصولها اليها . اما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها حتى الآن طريقين طريق الحديدة — صنعاء ، وطريق صنعاء — حجة . الا ان هذه الطرق التي يخططها موظفون غير مهندسين وقرويون غير مأجورين وتلك السيارات البالية التي يديرها سواقون غير ذوي كفاءة تجعل الراكب يسأل الله السلامة في كل لحظة

في طريق الحديدة — صنعاء تطوي السيارة بادىء ذي بدء سهول تهامة فتتسف بين كثبانها وتغوص احياناً في رمالها ويتحمل الراكب حرارة شمسها اللاهبة ، فاذا انتهى منها بعد مسير نحو ستين كيلو متراً يصل الى بليدة اسمها (باجل) تتقدم وصفها . واذا غادرها ظهرت امامهُ طلائع الجبال التي تقدم ذكرها . وبعد ان يجتاز محطة البحيح وقرية عيال التهاميين ايضاً تنحرف السيارة نحو الجنوب الشرقي وتشرع بالتوغل ، فتلك الطريق التي فتحت للسيارات حديثاً على النحو الذي وصفنا نقصه وخطره . وهي تتلفل وتتسع وتصعد وتهبط في اودية طويلة قليلة العمران والسكان اسماؤها سيحان وسهام تجري في بلاد ريمة . وهذه الاودية منحصرة بين جبال شاهقة من فروع جبال ريمة منها — والممتدة على الساثق الذي اسمها — على يمين الطريق جبل ضام وجبل عبس وجبل برع وجبل عاكر وعلى يساره جبل العجي وجبل شرق . وهذه الاودية تتصل تارةً وتبتعد اخرى ، وتكثر في عدوانها اشجار السمر الشائكة والنباتات المتعرشة على اختلاف فصائلها وحقول الذرة على اختلاف اعمارها واطوالها ، وقد يصادف السائر ايضاً فيها قطعان القرود على اختلاف وفرتها وضخامة بعض افرادها وغرابة

(١) الوبر Hyrax دويبة كالسنور لكنها أصغر منه (٢) الهمداني في صفة جزيرة العرب ص ١٩٢
(٣) غيول جمع غيل ، اصطلاح يماني يطلق على الينابيع الجارية

وثباتها وصيحاتها المضحكة . واذ كانت السيارات لا تستطيع الاسراع اكثر من ١٠ — ١٥ كيلومتراً في الساعة بحكم شدة الطريق وكثرة المعارج والمنحطات فلا بد من قضاء الليلة الاولى في هذه الاودية المقفرة . والمحطة الوحيدة التي يجوز المبيت فيها هي قرية حقيرة وبيئة اسمها «مدينة العبيد» — سكانها جناية من السودان . وبعد مسير مسافات شاسعة وسط وادي حام علي في بلاد آنس يصادف السائر قرب منتهاه الشرقي حماماً معدنيًّا كبريتيًّا يأتيه المرضى في شهري مارس وابريل . وبعد هذا الحمام ببضعة كيلو مترات تشرع السيارة باقتحام عقبة طويلة كؤودة اسمها عقبة الصنع ، اذا بلغت اعلاها أفضت الى ظهر النجد اليماني الذي تقدم ذكره وتصل الى احد قيعانه المنبسطة المسمى « قاع جهران » فيتنفس المسافر هنا الصعداء لخلاصه من الصعود والدوران المتواليين المدورين للرأس ومن ضيق الاودية وحشرها وحرها ، ويلاقي بعد الآن فضاء فسيحاً وهواء سجسجاً . وبعد الاستراحة برهة في قرية « سمر » ينحرف السائر نحو الشمال الشرقي ، فاذا انتهى من قاع جهران يصعد في نقيل كؤود يفضي بعده الى اودية لا تخلو من منعرجات ومنبسطات فيها عدة قرى متنزة اسماؤها بيت زيادي ووعلان والدوب وحزيز وغيرها حتى يصل الى قاع فسيح في وسطه مدينة صنعاء

هذا وما عدا السيارات، ليس في اليمن ولم يكن من وسائط النقل، سوى البغال والحمير والابل. اما الخيل فقليلة الوجود والاستعمال شأن كل البلاد الجبلية. والطرق عبارة عن شعب ومسالك وشاء حفرتها الاقدام بمرور الايام . وقد صادفت في طلوعي من وادي الاهجر الى حصن كوكبان في عقبة تقطع الباط توقفا اكثرها مشياً، ان قسماً من هذه العقبة قد بلط بليطاً حسناً لم اعرف رغم سؤالي اي صاحب خير من القدماء صنعه وفي اي عصر صنعه . ومثل هذا البلاط موجود في نقيل سمارة الصاعد من إب الى يريم وهو على ما قيل من صنع الملك العزيز طغتكين اخي صلاح الدين الايوبي الذي حكم اليمن في سني (٥٧٧—٥٩٣هـ) ، ولعل الاول ايضاً من صنعه ، كما ان السور المحيط بصنعاء بدأ به اخوه توران شاه وأكمله هو

طريق القوافل القديمة

﴿ وصف طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء ﴾ كانت الجيوش التركية والقوافل التجارية قبلاً تسلك طريقاً أقصر منالاً وأكثر عمراناً وسكاناً منها في طريق السيارات الحديثة . عبد الترك بعض أقسامها في زمانهم وبنوا الجسور على بعض أوديتها فجعلوها صالحة لسير عجلات المدافع وغيرها . الاّ ان هذه الاقسام المعبدة قد أشرفت على الخراب من الاهمال الحاضر . فالمسافر في هذه الطريق [1] بعد مغادرة قرية باجل ومحطة البحيح اللتين تقدّم ذكرهما ينحرف

(١) وصف هذه الطريق مراسل جريدة التيمس الانكليزية المستر هرس سنة ١٨٩٢ ، ونشر ترجمته جيمس ضومط في المقتطف م ٣٨ ج ١

نحو الشمال الشرقي ويمر بقرية اسمها حجيلة . ومن ثم يشرع بالصعود في واد طويل ، هائل المنظر ، على جانبيه جلاميد عظيمة مدهشة ، واسم الوادي حجام يمتد نحو ساعتين على سير الجمال وفي قرب حجيلة قرية الاكمة من قرى جبل مشار ، وتحتها العريف ووراءها جبل صعفان وفيه حصن متسوح . وبزداد الصعود بين الترقل بعد حجيلة كلما أوغل المسافر نحو الشرق وتزداد معهُ مناظر الجبال العظيمة ووعورتها الرهيبة ، وتزداد ايضاً رقة الهواء وبرودته المنعشتان على خلاف ما كان في هواء تهامة ذي الثقل والحر المضنيين وبعد وادي حجام يبلغ المسافر سفح جبل وصل ويلمح على يساره في الافق الشمالي جبل الطويلة ، ويلمح أمامه في الافق الشرقي جبل شمام المعدود من قمم اليمن الشامخة ووراءه في الافق الغربي جبل برع وجبل ربعة المماثل لهُ ويلمح في طريقه ايضاً اوير بقرية محصنة اسمها « المنارة » أصلها اسماعيلية مكرميون . وبعد اقتحام عقبة طويلة تقطع ناط القلب طولها خمس ساعات يصل الى بليدة اسمها مناخة مبنية قرب قمة جبل حراز المشابه لصهوة الفرس . وهي كما قيل مسرح للبوم وموطن للعقبان والنسور ومناخة في موقعها وعلوها وتكل دورها الشبيهة بالحصون والآكام من أمنع أماكن اليمن وأعزها منالاً ، تشرف من أعلاها الاربعة على أودية ووهاد هائلة السحق والانحدار . واذا سرح المسافر نظره في آفاق مناخة البعيدة يرى وادي موسنة ينبسط أمامهُ شمالاً بغرب ودونه جبلا ملحان وحفاش ، وفي الشرق جبل شعيب حضور أعلى قمم اليمن طراً وتحته بوعان . وثمة قنن عديدة شيدت فوقها قرى حصينة وما منها الا وحولها الاراضي المحروثة والحقول الصناعية المتدرجة ومغارس البن والقات . وبعد مناخة يعود المسافر الى الهبوط والتدحرج في تقيل عمودي شاق اسمه تقيل مناخة فاذا بلغ وادي الشجة في اسفله يعود الى الترقل تارة والهبوط أخرى ، والهبوط أكثر والطريق مملوء بالاشجار الشائكة ، حتى يبلغ أسفل واد سحيق يعد أوطأ قسم الجبال في اليمن وأحرها فيه قرية اسمها مفحق بليت فوق قمة . ثم يعود المسافر للترقل في درجات عسيرة لا يحصى حولها وهاد لا قعر لها ولا حد حتى يبلغ قرية اسمها سوق الخميس ، ثم قرية أعلى منها اسمها بوعان فيها قلعة شاهقة ، وفي بوعان مشهد للجبال والاودية الهائلة . واذا تراكمت امواج الضباب او قطع السحاب وهي كثيرة الشتاء والتراكم في هذه الاماكن الجبلية المتجهة الى الغرب نحو سواحل البحر الاحمر ، تحدث مسارح النظر ومباهج الفكر التي أطرينا روعتها وبداعتها . وبعد بوعان يشرف الترقل الى متنة او مخضر سنان باشا وهي آخر مرحلة للقادم من الحديدة . وبعدها نزول متدرج الى مساجد ، ثم صعود الى عقبة عصر ثم نزول الى سهل أفيح فيه مدينة صنعاء خاتمة المسير

قلنا ان الترك في عهدهم الأخير عبدوا أقساماً كثيرة من هذه الطريق وخلوا صعبها . وكانوا يريدون ان يسيروا بها من مفحق الى وادي ضفور الى عيال ، تاركين مناخة لصعوبة

عقباتها وعلوها . ثم قرروا مد سكة حديدية من رأس الكثيب في شمالي الحديدة الى باجل فوادي ضفور فمفحق فسوق الخميس فصنعاء، وعهدوا في مد هذه السكة الى ادارة الخط الحجازي ، فقامت هذه الادارة بالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبان حديدية ، وتقدم التمديد من الساحل الى الداخل نحو ١٥ كيلو متراً . ولكن مفاجأة الطليان بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب البلقانية والحرب العامة ، حالت دون انجاز ذلك

الارتفاعات في قسم الجبال

صعدة ٢٢١٦ عمران ٢٣٠٢ كوكبان ٣٠٠١ الروضة ٢٣٠٦ رداع ١٤٠١ تلا ٢٨٦١ ذي مرمر ٢٦٩٨ شام ٢٦٣٥ ذمار ٢٤٣١ يريم ٢٦٨٥ تعز ١٣٧٤ مأرب ١١٠٠ الطويلة ٢٩٠٠ مسور ٣١٦٠ معبر ٢٥١٦ جبل شعيب حضور « اعلى قمم اليمن » ٣٥٠٠ جبل ظفير في قضاء حجة ٣٤٠٠ جبل شهارة في بلاد حاشد ٢٣٧٠ . وفي بلاد عسير ، أبها ٢٢٧٥ سوغا ٢٣٦٠ محائل ١٦١٠ غامد ٢١١٠ . وفي قسم تهامة اليمن زهرة ٣٥٧ حبس ٢٩٥ بيت الفقيه ١٦٥ زبيد ١٤٠ وجميعها بالامتار

الاودية والسرود

ليس في اليمن أنهار تشبه على الاقل الصيفي او يردى في بلاد الشام من حيث غزارة الماء ودوام الجريان . بل ان بين جباله اودية تحصل من خطوط اجتماع المياه الهابطة من ذروات جبال اليمن والمنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب او نحو النجود في الشرق . وتحصل مياه هذه الاودية اما من الينابيع المتفجرة عند خطوط اجتماع المياه المذكورة واسمها في اليمن (غول) جمع (غيل) ، وإما من السيول المجتمعة من مياه الامطار . ومياه هذه الاودية اما ان تغور في رمال تهامة والجوف وتضيع سدًى، وإما أن ينتفع بها في ري بعض الاراضي كما يعمل أهل زبيد ولحج . وهذه الاودية كثيرة ، لا طائل في ذكر اسمائها وتعداد روافدها في مجالتنا هذه . وجلها جاف في غير موسم الامطار . وليس بينها ذو ماء غزير يسيل في ايام السنة وينتهي في البحر الا وادي بنا ومصبه شرقي عدن ، ووادي لحج ومصبه في عدن ، وأودية تهامة العربية كوادي مخا ووادي زبيد ووادي رمع ووادي سهام ووادي سردود ووادي مور . وتمتد طول كل منها ٤ — ٥ ايام على الماشي ويحصل في مجاري بعضها غدران عميقة وواسعة يجدون فيها سمكاً يوزن الكيلو غرام أو الكيلو غرامين . ويذكر من أودية الشرق التي تذهب نحو فيافي الجوف وادي الجارد ووادي أذنة وغيرهما . الا ان اعظم هذه الاودية واقواها هو وادي مور الذي لا ينقطع في كل السنة وهو ميزاب تهامة الاعظم ، ومثله بكثرة الروافد وبعد المآتي في الشرق وادي آذنة الذي كانت تخزن مياهه بسد مأرب الشهير ويلقب بميزاب الشرق

والاودية في اليمن اجل اماكنه قدراً واعظمها شأناً ونفعاً . وهي ازهاها منظراً وازكاها تربة وارفرها خيراً وميراً . ففيها المواقع الرغيدة والينابيع والعيون الدافقة والاشجار الظليلة والمحاصيل الغلالة والقرى والمزارع العامرة المنتشرة على عدوتيها انتشاراً متقارباً جميلاً واذ ارتفعت هذه الاودية عن مستوى تهامة وحرها وانطلقت عن عقر الجهود وبردها فهي معتدلة الاقليم في الجملة على ان بعضها يشذ عما ذكرناه لضيق رقعته وانحباس هوائه وكثرة مائه فيحدث فيه الحر اللاهب والبرد اللاسع ويسبح ويشأ تفتك فيه حمى البرداء (الملاريا) . لا جرم ان اليمن لولا اوديته هذه لما اختلف بحياله وتهائمه من الهيكل العظمي الا قليلاً . فاجل مغارس اليمن ومزارعه واجود وابرك اشجاره وثماره تكون في هذه الاودية وفي كل منها كما قال الهمداني « ما لا يوقف عليه من القرى الصغار والابيات ، وكل واد منها مخلاف يكون فيه سلطان يقوم به عوائده »

وكان قدماء اليمانيين يعرفون قيمة مياه هذه الاودية الفائضة ويحسنون خزنها والانتفاع منها فيعمدون الى بناء الاسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية المذكورة لحجز السيول ورفع المياه لري الاراضين المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات . فتكاثرت الاسداد بتكاثر الاودية حتى جاوزت المئات . وذكر الهمداني في يحصب السلو من مخاليف اليمن (قضاء يريم الحالي على ما يظن) وحده ثمانين سداً . والى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وباربوة الخضراء من ارض يحصب ثمانون سداً تقلس الماء سائلا

واشهر اسداد اليمن « العرم » وهو سد مأرب الشهير وسد الحانق بصعدة وسد ريدان وسد سيان واسداد بلاد عنس وغيرها . وكلها مندثر ، لو امكن ترميم بعضه ان لم يكن جميعه لعاد قسم من عمران اليمن وزهوه اللذين أدبجهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة)

المعادن

يستعمل اهل الجبال في اليمن الملح الصخري الذي يجلب من جبل الملح في مأرب . قال الهمداني في هذا الجبل ، هو ليس بجبل منتصب ولكنه جبل في الارض يحفر عليه ويعمن في الارض وهو يبقى منه اساطين تحمل ما استقل من تلك المحافر وربما انهدم على الجماعة فذهبوا . وهي ارض لا نبات فيها فيحمل اليها الماء والزاد والحطب والعلف ويتحفظ على الماء — من أجل الغراب ان يفسر السقاء فيذهب ماؤه وهو من مأرب على ثلاث مراحل خفاف . ومأرب بحذاء صنعاء شرقاً . اه . وفي مراحل تهامة الغربية عدة ملاحات اخصها الصليف شمال الحديدة ، وهي عظيمة ملحها صخري فريد في نقائه وجودته وغزارته وقد كانت هذه الملحة تستغل في عهد الثمانيين وتدر وارداً قيل انه كان يبلغ المائتي الف ذهب عثماني ، الى ان خربتها الدوارع الانكليزية خلال الحرب العامة وحطمت مبانيها وآلاتها فلم تعد تقوم لها

قائمة ، وقد طلب بعض الاجانب من جلالة الامام امتيازاً باصلاحها واستغلالها فلم يلب طلبهم خشية امتداد ايدي الاجانب الى اليمن بجرائمها . . . وقد اوجب خراب ملحة الصليف عمران ملحة عدن التي يستخرج ملحها من البحر وفي اليمن احجار بازلتية سود واحجار كلسية وجبسية يبنى صالحة للبناء واحجار كالرخام تقطع الواحاً رقيقة فتخرج شديدة الشفوف واللين والمتانة كأنها الزجاج او انيكا يستعملونها لسد النوافذ ويأتون بها من حوالي صنعاء . ولا تخلو بلاد اليمن البركانية من ينابيع مياه حارة كبريتية عليها حمامات يقصدها الاعلاء ، اشهرها حمام علي في قضاء آنس وحمام بيت الفقيه وحمام ناحية عر وحمام قحبة وحمام رداع

وقد ردد الهمداني وغيره من مؤلفي العرب وأطنبوا في معادن اليمن وأحجاره الكريمة فذكروا وجود الذهب والفضة والحديد والنحاس . وقيل ان بعض الخبراء من الافرنج اخبروا ايضاً عن وجود معادن الحديد والكروم والنحاس والفحم الحجري والكبريت والنفط ، وذلك في النماذج التي جلبت لهم للفحص او في الاماكن التي توصلوا اليها . لكن احداً لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها ان كانت لها مناجم دارة ، ولا يزال اليمن بحاجة الى خبراء في الجيولوجيا والمعادن يرودونهُ رواداً علميًّا ويحققون الصفاء والغنى المذكورين اللذين يشك في كفايتهما ووفائهما بنفقات الاستخراج . وكذلك لا يعرف سبب اهمال المعادن القديمة التي ذكرها الهمداني وغيره أنفاد مناجمها أم لصعوبة استخراجها . وجل ما قيل[1] ان منجم الفضة في الرضراض بين بلاد همدان وخولان كان يستثمر قبل الهجرة الى ان هبط احد كهوفه وسد منافذه فترك . ومثله منجم الرصاص في بلاد نهم ومنجم الفضة في مسارع ، قيل انهما كانا يستثمران في عهد الامام شرف الدين وابنه المطهر (٩٢٣ — ٩٨٠ هـ) الى ان هبطت كهوفها ايضاً وسدت منافذها فتركا وقيل انهُ كان في جبل نقم (قرب صنعاء) في عهد الحميريين منجم للحديد ظلوا يستثمرونهُ قروناً وكانت الاسلحة المصنوعة من هذا الحديد ذات قيمة باهظة لجودته ، وقيل ايضاً انهُ كان في جبل صبر (قرب تعز) منجم للذهب استثمر طوال قرون . ولم يبق من المناجم القديمة التي تستثمر سوى منجم الحديد في جوار صعدة . ويذكر ان الحديد القليل الذي يستخرج منهُ يؤتى بهِ الى صنعاء وغيرها ويباع بضعفي ثمن الحديد الاوربي المجلوب الى اليمن ويعمل منهُ الجنبيات (جمع جنبية وهي السكين التي لا بدَّ لكل يماني ان يحملها في وسطه) والجرد (جمع جردة وهي ضرب من السيوف العريضة) . اما الجزع اليوني والمسير والعقيق الاحمر والاصفر اللذان يستعملان في صناعة الخواتم والكذب الذي يعمل منهُ ألواح وصفائح وقصب سكاكين وأمثالها من الاحجار الجميلة التي ذكرها الهمداني فانها لا تزال موجودة في اليمن يرزق من نحتها ونقشها أرباب صناعتها في صنعاء وغيرها

(١) سالنامة ولاية اليمن لسنة ١٣٠٤ هـ ، مطبعة صنعاء